المكان بعد موته، وخصصت له القنصلية مكاناً بالأوبرا الأسبانية، حيث أنه المكان المناسب ليكون مثوىً ومدفنًا للفيلسوف، وقد تحول هذا المكان بعد ذلك إلى مكان أثري وتذكاري لذلك المواطن الأسباني الباهر[1].

جذور فلسفة سانتيانا

يعد تتبع الخلفية الفلسفية لمعرفة مصادر فلسفة سانتيانا من الأمور الشاقة والمعقدة معاً، ويرجع ذلك - فى نظر الباحث - إلى عدة أسباب، يمكن إيجازها فيما يلى:

السبب الأول: يكمن فى أن سانتيانا بدأ أولى كتاباته بنظم الشعر[2]، فعلى الرغم من كونه أستاذاً للفلسفة فى جامعة هارفارد، إلا أنه لم يكتبْ مؤلفاته الأولى بوصفه فيلسوفاً، وإنما كشاعر، مولع ببعض صور الجمال والحكمة[3]. والدليل على ذلك كما يقول سانتيانا أنه بدأ كتابة الشعر فى سن الخامسة عشر أو السادسة عشر أى قبل فوزه بالجائزة الشعرية للقصيدة[4]. حيث أكد سانتيانا على ذلك بقوله « أما عن تذوق الشعر فقد تلقيته من استاذ انجليزى عظيم وجميل فى فكره، هو السيد بيرون جروتشه» Mr. Byron Groce حيث غرس فى عقلى هذه التأثيرات الدقيقة فى طفولتى، وقد امتدت هذه المؤثرات إلى العائلة»[5].

وبعد ذلك وفى متوسط هذا العمر كتب سانتيانا أولى قصائده، وفاز بجائزة شعرية عن قصيدة كتبها تمتلىء بالعواطف البيرونية الجياشة، فضلاً عن عبارات التشاؤم والأسى، كما احتوت القصيدة على وصف فضل الليل على النهار[6]. حيث قام سانتيانا حينها بترجمة القول المأثور عن «يوريبيديس»Euripides فى عبارته الشعرية»إنه ليس من الحكمة أن تكون فقط حكيماً» فكما يقول سانتيانا أن هذه المقولة الشعرية أعطتنى جملة المشاعر

(1) Stanford Encyclopedia of Philosophy, at. http://plato.stanford.edu/entries/santayana (02/06/2008).

(2) Richard Butler: the Mind of Santayana, op. cit, P. 133.

(3) جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، مرجع سابق، ص323.

(4) G. Santayana: persons and places, op. cit, p. 17.

(5) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 6.

(6) Richard Butter; the Mind of Santayana, op. cit, pp. 15:16.

والأحاسيس بل أعطتنى الموسيقى الشعرية التى بنيت عليها القصيدة المكونة من أربعة عشر بيتا[1].

لذلك نجد الروح الشعرية قد اختلطت بالأفكار الفلسفية فى معظم كتابات سانتيانا، لذا كان حقاً علينا أن ندعوه بالشاعر الفيلسوف أو كما قال عنه ا.وولف - أن سانتيانا هو أكبر شاعر فيلسوف تفخر به أمريكا اليوم، وفلسفته هى فلسفة الشعر والجمال والدين[2].

السبب الثانى: ويكمن فى كون فلسفة سانتيانا تضرب بجذورها فى الماضى البعيد وأعنى به - الحضارات الشرقية القديمة، وبخاصة الفلسفة الهندية عند بوذا حيث يرى «جى. جى. كلارك» - أنَّ الفيلسوف الأمريكي جورج سانتيانا قد أعطى للفلسفة الهندية كثيرًا من الاهتمام، ومن ثم كان «أهم متلقٍ أصيل لجمّاع الفلسفة الهندية»[3]. وبخاصة فى فلسفة سانتيانا الأخلاقية.

ويتمثل الأثر الرئيسى فى اهتمام سانتيانا بالفلسفة الهندية والبوذية فى اهتمامه بفلسفة «الفيناتا الهندية» - حيث تهيأت له الفرصة ليؤسس نقطة ارتكاز مرجعية خارج الفلسفة الغربية، ويستعين بها ليوضح آراءه فى الميتافيزقيا، وبدت الفلسفة البوذية واضحة بخاصة فى كتابات سانتيانا عن الأخلاق(*)، حيث أراد أن يُنشئ «أخلاقاً ما بعد العقلانية»- Post Rational Morality. والتى كشفت عن نواقص النزعة الأنانية، وأكدت بدلاً من ذلك على قيم التوازن الباطني والتعاطف مع الآخرين[4]. ولم يقتصر الأمر عند الحضارات الشرقية القديمة فقط، بل امتد التأصيل إلى داخل الفلسفة اليونانية، حيث صنع سانتيانا لنفسه بشكل فلسفى

(1) G. Santayana: persons and places, op. cit, p. 241.

(2) ا.وولف: فلسفة المحدثين والمعاصرين، ترجمة/ أبو العلا عفيفى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1936، ص222.

(3) جى. جى. كلارك: التنوير الآتى من الشرق، ترجمة / شوقى جلال، سلسة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 346، 2007، ص187.

(*) هناك بحث قام به «جون ماغنوس»- حاول فيه إيضاح أثر الفلسفة البوذية الهندية على فلسفة سانتيانا الأخلاقية - انظر بالتفصيل -

=John Magnus Michelsen: The Place of Buddhism in Santayana's Moral Philosophy, at,http://ccbs.ntu.edu.tw/FULLTEXT/JR - ADM/magnus.htm

(4) جى. جى. كلارك: التنوير الآتى من الشرق، مرجع سابق، ص188.

ونقـدى الرؤية الخاصة فى الحياة على طريقة كل من أرسـطو والتقاليد اليونانية القديمة، وذلك من أجل فهم و إدراك الحياة على أساس من التقدير والتقييم العقلانى للقيم بوجه عام[1].

ويـرى المؤلف أن هـذه الجذور الشرقية إن دلـت على شيء، فإنما تدل عـلى أصالة الفكر الهنـدى القديـم، بل تدل على أن الأسـاس الـذى نبعت منه القيـم الغربية بوجه عـام، والقيم الأخلاقية بوجه خاص هو الأفكار الشرقية القديمة، وهذا ما أكدت عليه فلسفة سانتيانا، كما أكد سانتيانا على نظرية هامة جدا وذلك بوصفه فيلسوفًا غربياً ألا وهى تهافت نظرية المعجزة اليونانيـة أمام الأفكار الشرقية القديمة، حيث أنه إذا كان هناك تأصيل لفلسـفة سـانتيانا لدى اليونان، فإن هذا التأصيل قد اقتصر على فلسـفة كل من أفلاطون وأرسـطو فى القيم، وفلسـفة ديمقريطس الطبيعية ولم يتدرج إلى الفلسفة اليونانية بوجه عام.

ومـن جانب آخر - قام أحد الباحثين ويدعى «سـوليفان» Celestine J. Sullivan ببحث ليعرض فيه «ميراث سـانتيانا الفلسـفى»Santayana's Philosophical Inheritance. فقام فيه بعرض جميع المصادر الأساسـية التى اسـتقى منها سانتيانا - فلسفته، ورأى سوليفان - أن فلسفة سـانتيانا تنبع من المثالية اليونانية، والمادية، والنزعة الشكية، أما النزعة الروحانية فقد جاءت إلى سانتيانا من فلاسفة القرون الوسطى والأفلاطونية المحدثة وكذلك الفلسفة الهندية، وعليها كما يقول سـوليفان تبدو فلسفة سـانتيانا حافلة بالتقليد كفلسفة جون ديوى (1859 - 1952) John Dewey- فى التعبير عن المزاج المعاصر[2]. فى حين أن سـانتيانا لا يوافق أن تكون معظم فلسفته حافلة بالتقليد، أو المؤثرات اليونانية، أو غيرها من المؤثرات التى ذكرها سوليفان، فقد أكد سانتيانا على ذلك بقوله «إن فلسفتى ربما ينظر إليها على أنها من صنع هذه التقاليد المختلطة والمتنوعة، أو على أسـاس أنها عبارة عن محاولة للنظر فى التقاليد المختلفة من حيث وجود هذه الحريات المتعددة بشكل عادل ومفهوم. فأنا لا أؤكد أن ذلك هو أصل وأساس نسقى الفلسفى، فعلى كل حال فإن صدق هذه القضية ربما يكوّن سؤالاً آخر، وهو إلى أى مدى كانت فلسفتى بعيدةً عن تلك المؤثرات؟ وما الكيفية التى كنت أحيا من خلالها»[3].

(1) Guy. W. Stroch: American Philosophy from Edwards to Dewey, an Introduction, van Nostrand Reinhold Company, New York, 1968, P.191.

(2) Celestine J. Sullivan: Santayana's Philosophical Inheritance, in: The Philosophy of George Santayana, edited by, P.A. Schilpp, Tudor Publishing Company, New York, 1951, P. 65.

(3) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 3.

وهنا يشير سانتيانا إلى حقيقة هامة، وهى الحقيقة العظمى التى تأثر بها سانتيانا فى فلسفته بوجه عام، وكانت بالنسبه له شعاع الضوء الذى به رأى العالم، وهى ذلك الأثر العميق الذى خلفه والده له وهو إيمانه بالإتجاه المادى والشعر ورفض الدين عن طريق استخدام الشك فى التفكير، فيقول سانتيانا عنه «لقد درس والدى الدولة والقوميات، وكتب كتابا صغيرا عن جزيرة ميندانو Mindanao كما أبحر وطاف حول العالم ثلاث مرات فى سفن الإبحار التى كانت موجودة فى هذا الوقت، وقد زار عن طريق الصدفة إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية، وتأثر كثيرا بالطاقة الهندسية والتقدم العلمى الذى كان منتشرا فى تلك البلدان، ولكن شغفه وحبه العميق كان لروعة الإتجاه المادى، ومع ذلك كان لديه عقل شاك ومتقلب تجاه رؤيته وتمييزه للأشياء»[1].

وبعد أن صرح - سوليفان بتلك العناصر الجمة التى كانت سبباً فى تكوين فلسفة سانتيانا جاء ليوضح فى بحثه المذكور سالفاً - أن ذكر هذه العناصر ليس انتقاداً لأصالة فلسفة سانتيانا، وإنما أراد منها تقديم بعض العناصر التى ساهمت فى تكوين فكر سانتيانا التقليدى، وذلك لتذكير القارئ كيف عالج سانتيانا هذه الاشكاليات، وما الذى أخذه من سابقيه، وما الذى قام برفضه، وكيف جمعهم سانتيانا سوياً فى فلسفته الخاصة[2]. كما أكد سوليفان - بعد ذلك على أن العناصر الرئيسية التى شكلت فكر سانتيانا الفلسفى هى ثلاثة - الأفلاطونية اليونانية، والنزعة المادية، والنزعة الشكية[3].

وعندما تحدث سانتيانا عن تفضيله للفلاسفة اليونانيين أشار إلى الفلسفة الطبيعية عند ديمقريطس، وفلسفة أفلاطون الأخلاقية، وأقر سانتيانا بأنه يدين إليهم بالفضل فى تشكيل فلسفته الخاصة[4]. كما صرح سانتيانا بأن المدافعين عن الحياة والطبيعة هم الفلاسفة الأوائل (الهنود Indians وفلاسفة اليونان الطبيعيين معاً) وقد كانت أفكارهم أكثر وضوحاً عند اسبينوزا فى قضيته الرئيسية الخاصة بالعلاقة بين الإنسان وروحه والكون[5]. كما أعجب

(1) Ibid: P. 4.

(2)Celestine J. Sullivan: Santayana's Philosophical Inheritance, op. cit, P.66.

(3) Ibid: P. 66.

(4) Richard Butler: the Mind of Santayana, op. cit, p. 36.

(5) Ibid: P. 38.

سانتيانا بفلسفة ديفيد هيوم مما دعا «بالمر»Palmer (أحد أساتذة سانتيانا فى هارفارد) أن يقول(*) عن سانتيانا أنه يحتفظ بهيوم داخل عظامه[1].

أما هربرت سبنسر Herbert Spencer فيقول عنه سانتيانا أنه لم أتعلم منه أى شىء، ولكننى وافقته فى نزعته الطبيعية أو المادية، وذلك لأننا بدأنا معًا بالإفتراض الأدنى للإدراك والفعل، حيث قد اتفقت مع وليم جيمس فى نظرية سبنسر عن التطور والتى هى عبارة عن مجموعة من الكلمات أو عبارة عن تعميمات متباعدة من حيث أن بعض الأشياء ربما فى وقت ما قد تقدم وتفترض لنا[2].

أما هنرى توماس - فيرى أن فلسفة سانتيانا تكشف عن مزيج عجيب من الأفلاطونية، والإلحاد، والكاثوليكية، ومن العجيب أنه يدمج خيوط فكرة الثلاثة هذه - والتى يبدو أنه لا يمكن التوفيق بينهما - فى نسيج واحد متماسك من الحكمة [3].

السبب الثالث: يبدو فى تلك الفترة الوسطى التى قضاها سانتيانا دارساً ومدرساً فى أمريكا، حيث ظل سانتيانا فى أمريكا أربعين سنة من الطفولة حتى بلوغه متوسط العمر، تعلم هناك فيما بين رياض الأطفال والمدارس العامة، والتحق فيها بالكلية والجامعة، كما كتب فيها أحد عشر من كتبه، واكتسب سانتيانا قوة كمعلم للفلسفة حتى بلغ الخمسين من العمر، وفيها تقاعد عن التعليم فى يناير 1912، وترك شواطئ أمريكا ولم يعد إليها مرة أخرى[4].

وقد بدأت الخلفية الفلسفية لسانتيانا تتكون فى تلك الفترة، حيث درس فى هارفارد على يد جيمس فلسفة «تين»(**) Taine خاصة كتابه فى الذكاء، ونظريات كل من «لوك» و«باركلى»

(*) «I had Hume in my bones».

(1)G. Santayana: persons and places, op. cit, p. 248.

(2) Ibid: P. 242.

(3) هنرى توماس: أعلام الفلاسفة - كيف نفهمهم، مرجع سابق، ص387.

(4) Baker Brownell: Santayana, the Man and the Philosopher, in the Philosophy of George Santayana, edited by, P. A. schilpp, Tudor Publishing company, New York, 1951, P. 51.

(**) فيلسوف فرنسى، ومؤرخ للأدب والفن. ولد فى مدينة فوزييه Vouziers (فى أقليم الأردن Ardennes بشمال شرق فرنسا) فى 21 أبريل سنة 1828، وتوفى فى لاريس فى 5 مارس سنة 1893. واتسع ميدان نشاطه فى التأليف: فأصدر فى سنة 1853 كتابا عن: «لافوتين وخرافاته» وفى سنة 1856 كتابا عن «تيتوس لفيوس=

و«هيوم» و«سبنسر» كما قرأ عليهم جيمس مخطوط كتابه «مبادىء علم النفس» Principles of Psychology - ويقول سانتيانا عن براجماتية «جيمس» إنني لم استطع قبول حديث جيمس عن الصدق، حيث كانت براجماتيته مجرد نزعة تجريبية خالصة، وعلى الرغم من ذلك هزت العالم بأجمعه، وذلك على الرغم من أنه يقول عن جيمس أن ما تعلمته منه ربما كان أشياء لم يعلّمْها جيمس لأحد، ولكنى استوعبتها مما كنت أنهله من روحه، وطريقته التى كان يعلم بها[1].

أما عن رويس، فإن سانتيانا يقول عنه أنه كان يتمتع بعقلية علمية قوية، لذلك كان مفيداً بصفه دائمة فى أفكاره، إن لم يكن لطيفاً للاستماع إليه، والسبب فى ذلك - كما يرى سانتيانا هو أسلوب رويس الثقيل الجامد والتكرارى، وكذلك انشغاله الرتيب بنظامه الخاص الذى لا يطاق، وذلك مما يجعل تأثير جيمس يبدو أقوى على سانتيانا الطالب والفيلسوف من تأثير جوزايا رويس[2]. وعلى كلٍ فإن دراسات سانتيانا كانت متمركزة حول الفلسفة كما يرى اسبريج، وقد كانت فلسفة اسبينوزا الأخلاقية هى الفلسفة المفضلة إليه، كما كان الأستاذان الذين قاموا بعنايته هما جوزايا رويس ووليم جيمس، ولكن لم يشعر سانتيانا بأية عاطفة نحو فلسفة كل من هذين الأستاذين، ولكن بواسطتهم قد بدا أنه تأثر بهما تأثراً ملحوظاً[3].

وفى اعتراف سانتيانا بفضل وليم جيمس فى تكوين عقليته الفلسفية والفكرية - يقول عنه « إن ما تعلمته من جيمس ربما كان تلك الأشياء التى لم يعلمها جيمس لأحد، ولكنني شربت منه تلك الروح الفكرية، كما استوعبت تلك الخلفية التى كان يعلم بها طلابه ومريديه»[4].

= المؤرخ الرومانى الكبير» وفى عام 1864 أصدر كتاب «تاريخ الأدب الانجليزى» (فى 3 أجزاء) وبذلك استقرت مكانته مؤرخا للأدب وصاحب نظرية فى تفسير الإنتاج الأدبى مفادها أن الأدب حاصل عوامل ثلاثة: الجنس، والوسط، واللحظة. أما فى الفلسفة فله أولا كتاب «الفلاسفة الفرنسيون فى القرن التاسع عشر» سنة1857، ثم كتابه الرئيسى فى الفلسفة ألا وهو «فى العقل» سنة 1870.

انظر - عبد الرحمن بدوى: موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، مرجع سابق، ص432.

(1) ت. ل. س. سبيريدج: الصورة المميزة في الفلسفة الأمريكية، بحث منشور في كتاب - تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200عام، إعداد/ بيتر كاز، ترجمة/ حسني نصار، مراجعة مراد وهبه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،1983م، ص402.

(2) Richard Butler: the Mind of Santayana, op. cit, P. 30.

(3) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p.26.

(4) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 15.

وعلى ذلك يمكن القول - أن سانتيانا كوَّن مع أستاذيه وليم جيمس وجوزايا رويس - فى أمريكا نوعاً من وحدة التأصيل التى تشير إلى ملحمة رائعة، لا فى تاريخ الفلسفة الأمريكية فقط، بل فى تاريخ الفلسفة الغربية أيضاً، هؤلاء هم فلاسفة هارفارد، الذين ظهروا فى عصر تميز باضطراب التطور هم وليم جيمس، وجوزايا رويس، وجورج سانتيانا[1].

تلك هى أهم المصادر الرئيسية التى كان سانتيانا يدين لها بالفضل فى أفكاره الفلسفية، أخذاً عن والديه الفكر المادى والعقيدة الكاثوليكية التى من صنع الخيال، ومن فلاسفة الهند واسبينوزا الفكرة الأخلاقية، أما فلاسفة اليونان فهم المصدر الرئيسي لفكر سانتيانا، وبخاصة ديمقريطس وأفلاطون وأرسطو، وكذلك الفكر الشرقى القديم، كما كانوا المصدر الرئيسى لكل فلاسفة المغرب والمشرق على السواء، أما جيمس وروريس فهما الأستاذان الفاضلان الذين أخذ عنهما سانتيانا أصول فكره الرئيسية فى أمريكا بل وأوروبا أيضاً.

واقعية سانتيانا الطبيعية

الاهتمام بالطبيعة ليس وليد الفلسفة المعاصرة فى القرن العشرين، فإذا كان الفيلسوف محل الدراسة يعد إمام النزعة الطبيعية فى القرن العشرين، إلا أنه لم يكن هو أول من صاغ للفلسفة الواقعية أساسًا طبيعيًا، حيث أشار سانتيانا بنفسه إلى أن الفلسفة اليونانية كانت تؤمن بالطبيعة والسياسة أكثر من إيمانها بالروحانيات، ولم يتيسر للفلسفة اليونانية حتى الآن أن تتحول إلى هذا الندم المتعالى الذى لعب دوراً كبيراً فى الفكر الهندى القديم، كما وجد ذلك الندم الترنسندنتالى بعد ذلك فى التأملات المسيحية[2]. وقد أشار سانتيانا إلى الفلسفة اليونانية قبل سقراط، حيث توصل الفلاسفة اليونانيون بشكل تقليدى إلى حقيقة الفلسفة الطبيعية، والتى تم تأسيسها و إعادة بنائها متأخرًا على يد اسبينوزا وكذلك العلم الحديث، فالفلاسفة الطبيعيون كما يقول سانتيانا يتنازعون فيما بينهم البين، وذلك بسبب كونهم مرتبطون فى مهمة إدراك ذلك الموضوع الذى لم يتحدد بعد، فهم حتى الآن مازالوا يرسمون و يتصورون البناء والتاريخ لذلك العالم الطبيعى الذى يحيا فيه كل واحد منهم[3].

(1) ت.ل.س. سبيريدج: الصورة المميزة فى الفلسفة الأمريكية، مرجع سابق، ص393.

(2) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , in: the philosophy of George Santayana, Edited by Paul Arthur schilpp, Tudor publishing company, New York, 1951, P. 509.

(3) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 22.